صور مشهودة :

من صميم الواقع ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

عرفت أديباً ذائع الصيت ، طوّف فى بعيد الأقطار وقريبها ، فأفاد من ذلك علماً فى خلائق الناس ، إلى جانب ما هو عليه من سعة اطلاع ورجاحة عقل . وعرفته كذلك عصامياً ابن نفسه ، لم يعتمد على مال يسنده ، ولا جاه يرفده ، فخاض ميدان الحياة دائباً صابراً ، وانتهى إلى ما أحب دون ما صخب أو جلبة ، ودون أن يظهر عليه أثر من خيلاء الفوز ببلوغ الغاية .

وعرفته إلى جانب ذلك كله مؤمناً — مفرط الإيمان — فى مبادىء اختطها لنفسه ، ومقاييس وقف عندها لا يعدوها مهما يحوطه من ظروف . وربما خطر لى أن أنهمه بأنه يحمل ذلك عن طريق تربيته الأولى ، فهى أصداء تتجاوب فى قرارة نفسه ، وامله لا يقوى على دفعها ومغالبتها ، بل ربما ضاق بها أحياناً ، فى إحدى هذه الفترات التى أبصره فيها ساهماً واجماً كأنما هو يلمس مكانها من نفسه (كلما عاد إلى تلك النفس) فيقف عند حدود ما أتهمه به ! وهو مع ذلك لا يتنكر لها ، ولا يتبرم بملازمتها ، حين يرى هذا الإجماع من إخوانه وأخدانه على استهجانها واستثقال ظلها ، فى هذا الزمن الذى تغيرت فيه مقاييس الناس واعتباراتهم !

أجل . كذلك عرفته منذ كشف لى عن دخيلة هذه النفس الغامضة ، وطالما سمعته يتحدث إلىّ بصوته الخفيض كلما جلسنا على انفراد ، فيقول : أتدرى — ويحك — من هى فتاة أحلامى التى لم أجد لها شبيهاً منذ شرعت أبحث عنها ؟! فأبتسم فى وجهه وأنا أعلم من هى ، فقد حدثنى عنها طويلا — وإن اختلفت أساليب حديثه — ولكنى لم أجد بداً من أن أسترسل فى مجاملته فأقول : ومن أين لى أن أدرى — يحفظك الله — من تكون ! فتبدو على محياه سمات الرضوان لهذا (الجهل) ، الذى سيمكن له من أن يطيل فى الوصف ما شاء خياله الجامح ، ويقول : إنها — يا أخى — فتاة قد أصابت حظاً من العلم ، يكفى لأن يجعل منها أماً صالحة . وقد تقول إن هذا أمر ميسور يتفق فيه الفتيات جميعاً ! ! غير أن فتاتى يجب أن تكون إلى جانب ذلك ، ربيبة بيت ما زال يتفيأ ظلال الدين والتقوى ، ويتقلب ذووه على مهاد وثير من الفضيلة والخلق العربى الكريم . ولابد من أن يكون لها إخوة كذلك ، ألمس فى نفوسهم جانباً من هذه الأخلاق ، وأتحسس مدى رجولتهم وأنفتهم . فأنا مؤمن بالقول المأثور : « تكاد المرأة تلد أخاها .. » ولا يعزب عنك بأننى شديد الحرص على أن يكون هذا (الخال) الذى أختاره لابنى ، موضع اعتزازه حين ينصرف إلى أترابه ولداته . ولست أبالى من هذه الفتاة بعد ذلك ، أن تكون كيف شاءت ، فحسبى أن تستوفى جمال النفس وجمال الحلى ، فتجمع الكمال من أطرافه . علم تزينه الفضيلة ، وخلق يجمله النظام والتدبير . وهل سعادة العيش إلا بذلك ؟!

ولا أعترض ما يقول ، فطالما ألفيته شديد الغيرة على هذه الصورة الجميلة التى رسمها فى خياله وحاطها بسياج من أحلامه الذهبية . وما أزيد على أن أقول : وأين تراك واجداً هذا ؟ وهل تظن هذه المتعلمة ستضع نقاباً على عينيها فلا تبصر من آثار هذه المدنية شيئاً ؟! أم تتوهمها (وقد تعلمت) لم تقرأ شيئاً من هذه المجلات الداعرة التى تعرض عليها ألواناً شتى من ضروب العبث

فيه القرآن ، والذى نصر الله عباده ببدر وكانوا يومئذ مستضعفين فى الأرض يخافون أن يخطفهم الناس . افعل هذا أيها الشريف العربى تنل بكلمة واحدة مجد الأبطال ومجد الملوك ، ويصبح اسمك هدى ومناراً لكل عربى وكل مسلم ما بقى على الأرض عربى أو مسلم . إننى أدعوك باسمى وباسم الصداقة التى كانت بينك وبين أبى رحمة الله عليه . أدعوك دعوة رجل صائم لله وأدعو الله أن يهديك ويؤيدك بنصرك ويمكن لك ، وفى هذا الشهر الطاهر المبارك يرجو المسلم أن تستجاب دعوته : فاللهم أعنا وانصرنا بالهدى . اللهم خذل عنا أعداءنا . اللهم أنقذنا وارحمنا وكن عوناً لنا ولإخواننا فى الدين والعروبة .

أيها الشريف العربى ، إننا وقوف نترقب ، ونتوق ، ونتلهف . وظنى فيك أنك فاعل ما أراد الله من نصرك لأهله ، وأنت أهل الخير ومعدن الكرم وابن الصناديد الأماجد من بنى قحطان . والسلام عليك أيها الرجل سلام أخ وابن أخ .

محمود محمد شاكر

فى كل أسبوع ، وتريها مختلف الأوضاع فى التبرج والعرى ! ثم هى إن زارت (دار الخيالة) ولو لماماً ، أفلا تظنها تقتبس منها ما يشوه عليك هذه الصورة الشعرية الفاتنة ؟! ولا يكون من صديق إلا أن يحدجنى بنظرة ملؤها الأنكار وهو يقول : ستكون حيث وصف لك ، ما دامت قد نشأت فى ذلك البيت الذى عينته

هذا الحديث لم يكن جديداً علىّ من ذلك الصديق ، ولكن الذى كان جديداً أن أراه قد أقبل على يوماً ، وجهه يتهلل بشراً ويتدفق سروراً وهو يبادرنى قائلا : ألم أقل لك إنك تسرف فى تشاؤمك حين تزعم أن الذى أبحث عنه ليس فى عالم الحقيقة ؟! لقد وجدتها على ما خيّلت ووصفت ، وكأنما كنت أستلهم الغيب حين تحدثت لك عنها ، فما تزيدت فيما قلت شيئاً !! يا لله ما أعجب !! أتظن ذلك من ضروب المصادفة وليس غير ؟!

ولا يكون منى إلا أن أشاطر هذا الصديق سروره حين أعلم أنه تقدم فطلب يدها ، ثم أجابه إلى ما طلب ذلك الصهر الذى لم يدع صفة من صفات الكمال إلا نسبها إليه ، ومما حدثنى به عنه أن قال : ليتك كنت معى ، فتسمع إلى رجل يحدثك بقلبه ولسانه (وقليل ما أولئك) ، تراه وأبناءه جميعاً يلبون داعى الله إذا نودى للصلاة فى أوقاتها ، فيتسابقون إليها من صغير وكبير !! ثم إنهم لا يصيبون من طعام أو شراب ، ولا يأتون عملا صغر أم كبر ، إلا متأدبين بآداب الإسلام مقتفين سنة نبيه الكريم !! وما لك لا تراه نسيج وحده بين أهل هذا الزمان ، حين أقسم لك جاهداً : أننى رأيته يدعو أبناءه ليتعطروا قبل الصلاة من يوم الجمعة ، بعد أن يأخذوا زينتهم يأتمون بالنبى فيما كان يصنع . أرأيت !! بل أنى لك أن تكون رأيت أحداً من مثله ؟!

وقال صديق متحدثا عن هذا الصهر التقى كذلك : وقد أحببت — يا أخى — أن أحتاط للأمر . فحدثته أننى رجل كثير الخصوم ، وإن كنت لا أعرف معظمهم !! فهم يخاصمونني لوجه الشيطان ! ويفتعلون بما يفتأ سخيمة نفوسهم المضطرمة حسداً وغلا ... فقال الرجل النبيل : وهذا مما يزيد قدرك فى نفوسنا ! فذو العلم والفضل محسود من صغار النفوس ، يتلمسون له العيوب ليجذبوه إلى حضيضهم الذى تردوا إليه ، ورضاء الناس غاية لا تدرك ...

فقلت - منشرحاً لما أصاب صديق من نعمة الاستقرار — إذن يوسعنى أن أقول مع الشاعر :

فألفت عصاها واستقرّ بها النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

قال أجل . يوسعك يوسعك ! وإننى منصرف إلى أهلى أزف إليهم البشرى ...

وانقضت أيام بعد ذلك . ثم لقيت هذا الصديق (مصادفة) فى ندى ، فإذا هو قد غاض من وجهه ذلك البشر ، وإذا هو سام مطرق حائر . فقلت له : ويحك ماذا ألمّ بك ؟ ألم تعثر على ضالتك المنشودة ؟ فماذا ترتقب بعد ذلك !! قال لا أرتقب شيئاً ، فقد أضللتها ثانية ، وان أنشدها (من هذا السبيل) بعد اليوم !! قلت وكيف ؟ لعلك انتهيت إلى غانية غير التى توخيت ؟! قال أجل انتهيت إلى شر غانية ! وإن كنت تعذرنى بأن لا تجادلنى بسبب ما صرت إليه فيما أحدثك به حدثتك . قلت أعدك ! قال : فاعلم إذن أن الرجل قد نكث العهد وخاس بالوعد !! قلت : اتق التقى (بقية السلف الصالح) كما قلت ؟! قال : إياه عنيت وكان هذا بعد أن أذعت بالخبر فى أهلى ، ولقيت العنت فى إرضائهم ، ورد ما يعترضون به علىّ !! واعلم أننى من جراء ذلك تنازلت عن يقين طالما حرصت عليه أشد الحرص ، وهو الإنكار على (أبى العلاء المعرى) مدلول بيت من أبياته ، وأنا — بعد اليوم — ممن يرون رأيه . فلا تعجب إن سمعتنى أردد بلسان الإيمان قائلا ما يقوله عن يقين وتجربة ، « وحسبك بالمجرب من علم !!.. » .

وهنا ألفيت مدخلا عليه ، فإذا أنا أطمئن فى جلستى ، استعداداً لجدال طويل ، وذلك على نحو مما تعودت أن أصنع معه حين أجادله . ولكنه أدرك ما عزمت عليه ، فإذا هو يبادرنى بقوله : ماذا ؟ أنسيت ما اشترطت عليك ؟ !

وما نسيت ، ولكننى أحببت أن أتأول ، فلا تفوتنى لذة المناقشة فى هذا التقلب الذى صار إليه ، فقلت : إننى لم أنس ، غير أنى ... فقال مقاطعاً حانقاً : ولا هذه (الغير) تجوز لك ، فانته عند حدودها قبل أن توغل !!

فعزّ على أن أضيف إلى ما انتهى إليه سوء العشرة ، فقلت : أفعل ! وانتهيت كما أحب . وفى النفس حاجات ...

(القدس) محمد سليم الرشدان
ماجستير فى الآداب واللغات السامية